ربح بالحيلة ما لم يربحه بالسيف

مفيد قميحة

من كتاب نوادر أبي دلامة

كان روح بن حاتم المهلّبي والياً على البصرة، فخرج إلى حرب الجيوش الخراسانية، ومعه أبو دُلامة، فخرج من صف العدو مبارز، فخرج إليه جماعة، فقتلهم، فتقدم روح إلى أبي دلامة بمبارزته، فامتنع، فألزمه، فاستعفاه فلم يعفه، فأنشد أبو دلامة:

إني أعوذ بروحٍ أن يقدّمني
إلى القتال فيخزي بي بنو أسدِ
إنّ المهلّب حبُّ الموتِ أورثكم
ولم أرث أنا حبَّ الموت من أحدِ
إن الدنوّ إلى الأعداء أعلمُهُ
مما يفرِّق بين الروح والجسد

فأقسم عليه روح ليخرجنّ، وقال: لماذا تأخذ رزق السلطان؟ قال أبو دلامة: لأقاتل عنه، قال: فما لك لا تبرز إلى عدو الله؟ فقال: أيها الأمير، إن خرجت إليه لحقت بمن مضى، وما الشرط أن أُقتل عن السلطان، بل أقاتل عنه، فحلف روح: لتخرجنّ إليه فتقتله أو تأسره، أو تُقتل دون ذلك، فلما رأى أبو دلامة الجد منه قال: أيها الأمير، تعلم أن هذا أول يوم من أيام الآخرة، ولابد فيه من الزوّادة، فأمر له بذلك، فأخذ رغيفاً مطوياً على دجاجة محمّرة ولحم

وسطيحة[1] من شراب وشيئاً من نقل[2] وشهر سيفاً وحمل، وكان تحته فرس جواد، فأقبل يجول ويلعب بالرمح، وكان مليحاً في الميدان، والفارس يلاحظه ويطلب منه غرّة[3] حتى إذا وجدها حمل عليه، والغبار كالليل، فأغمد أبو دلامة سيفه، وقال للرجل: لا تعجل واسمع مني – عافاك الله – كلمات ألقيهن إليك، فإنما أتيتك في مهم، فوقف مقّله وقال: ما المهم، قال: أتعرفني، قال: لا، قال: أنا أبو دلامة، قال: قد سمعت بك حياك الله، فكيف برزت إليّ، وطمعت فيّ بعد من قتلت من أصحابك؟ فقال: ما خرجت لأقتلك ولا لأقاتلك، ولكني رأيت لباقتك وشهامتك فاشتهيت أن تكون لي صديقاً، وإني لأدلك على ما هو أحسن من قتالنا، قال: على بركة الله تعالى، قال: أراك قد تعبت وأنت بغير شكُ سغبان[4] ظمآن، قال: كذلك هو، قال: فما علينا من خراسان والعراق، إن معي خبزاً ولحماً وشراباً ونُقلاً كما يتمنى المتمني، وهذا غدير ماء بالقرب منا، فهلمّ إليه نصطبح[5] وأترنم إليك بشيء من حداء الأعراب، فقال: هذا غاية أملي، فقال: ها أنا أستطرد[6] لك فاتبعني حتى نخرج من حلق الطعان، ففعلا، وروح يتطلّب أبا دلامة فلا يجده، والخراسانية تطلب فارسا فلا تجده، فلما طابت نفس الخراساني قال له أبو دلامة: إن روحاً كما علمت من أبناء الكرام وحسبُك بابن المهلّب جواداً، وإنه يبذل لك خلعة فاخرة وفرساً جواداً، ومركباً مفضضاً وسيفاً محلّى ورمحاً طويلة وجارية بربرية وينزلك في أكثر العطاء، وهذا خاتمه معي لك بذلك، قال: ويحك! وما أصنع بأهلي وعيالي؟ فقال: استخر الله وسر معي ودع أهلك فالكل يخلف عليك، فقال: سر بنا على بركة الله، فسارا حتى قدما من وراء العسكر فهجما على روح، فقال: أبو دلامة أين كنت؟ قال: في حاجتك، أما قتل الرجل فما أطقته، وأما سفك دمي فما طبت به نفساً، وأما الرجوع خائباً فلم أقدر عليه، وقد تلطفت وأتيتك به أسير كرمك، وقد بذلت له عنك كيت وكيت، فقال: مُمضي إذا وثق لي، قال: بماذا؟ قال: بنقل أهله، قال الرجل: أهلي على بعد، ولا يمكنني نقلهم الآن، ولكن امدد يدك أصافحك وأحلف لك متبرعاً بطلاق الزوجة أني لا أخونك، فإن لم أفِ إذا حلفت بطلاقها، لم ينفعك نقلها، قال: صدقت فحلف له وعاهده ووفى له بما ضمنه أبو دلامة، وزاد عليه، وانقلب معهم الخراساني يقاتل الخراسانية، وينكي[7] فيهم أشد نكاية، وكان أكبر أسباب ظفر روح في تلك المعركة.

---

(1) السطيحة: وعاء من جلد للشراب. (2) النقل: ما يؤكل مع الشراب. (3) الغرة: الغفلة.

(4) السغبان: الجوعان. (5) نصطبح: نشرب الخمر في هذا الصباح.

(6) أستطرد لك: أتقدمك في الجري. (7) ينكي بهم: ينزل بهم الأذى في الحرب.